(IJRSSH) 2023, Vol. No. 13, Issue No. III, Jul-Sep **e-ISSN: 2249-4642 p-ISSN: 2454-4671**

New Reading in Military Architecture (ALbaab ALwstani) Model[1]

Farouq Mohammed Ali

College of Arts - University of Baghdad

قراءة جديدة في العمارة العسكرية
(الباب الوسطاني) أنموذجاً

أ.م.د. فاروق محمد علي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

DOI:10.37648/ijrssh.v13i03.034

Received: 25 July 2023; Accepted: 12 September 2023; Published: 26 September 2023

ABSTRACT

Of the hard structures The establishment of defensive fortifications on the eastern side of Baghdad has begun since the days of the Caliph Ibu Jaafar Al Mansour (136-158 AH) (754-785 AC) when his son and His Crown Prince Mohammed al-Mahdi when he came from irrigation on top The army in (151 AH) (776 AC) on this side of Baghdad

He built a city and surrounded by a moat and fence, it has known by (Askar al-Mahdi) and Alrusafa later. .

A century after time, East Baghdad faced defensive fortifications again by Almustaein BeAllah (248-252 AH / 866-862 AC)

When he returned to Baghdad, he was covered by its people, after leaving Samarra because of the dispute between him and the Turkish leaders who grow their influence in Abbasi tiles, Almustaein BeAllah has surrounded both sides of Baghdad with a moat and a wall. Unfortunately, we have not received anything that is not the fortification of Asker Almehdi nor Almustaein BeAllah.

The last defensive immunization in the eastern side in the Abbasi era was those that were started by the Caliph Amustadhir BeAllah (487 - 512 AH / 1094 - 1118 AC). 529512 AH / 1118 - 1135 AC.(

These fortifications are considered great importance in the study of Islamic military architecture in Iraq,

Because one of the palaces remains to this day, which is known as (ALbaab ALwstani).

This research on the unique planning of this portlet is not similar to the planning of the entrances preceded by the entrances,

[1] *How to cite the article*: Ali F.M. (September, 2023) New Reading in Military Architecture (ALbaab ALwstani) Model; *International Journal of Research in Social Sciences and Humanities*, Vol 13, Issue 3, 385-400, DOI: http://doi.org/10.37648/ijrssh.v13i03.034

Therefore, the importance of this entrance is not limited to being the only example of Islamic cities in Iraq but also unique example in its unprecedented planning in Iraq.

تُعد أسوار الجانب الشرقي من مدينة بغداد ذا أهمية كبيرة للباحثين في مجال العمـــــارة الأسلامية عموماً والعمارة العسكرية خصوصا ، كونها كانت أخر المشاريع العمارية الضخمة لمدينة بغداد قبل احتلالها من قبل المغول سنــة 656هـ / 1258م ، ونحــن في هذا البحــث سنسلط الضوء على التخطيط الفريد لمداخل هذا السور ونضع تصورنا عن ما حاول القائمون على عمــارة هذا الســور أستهدافه في هذا التخطيط غير المسبوق في العمــارة العسكريـــة الأسلاميـــة في العــراق ، وقد قمنــا بزيارة موقع (الباب الوسطاني) ـ الذي يقع بالقرب من مقبرة الشيخ عمر السهروردي ـ أكثر من مرة ، ليــس لرفع القياسات وألتقــاط صــور حديثة للموقع فحسب ، بل أيضا لفهم هذا التخطيط من خلال معاينته على أرض الواقع . (ولابد لنا أن ننوه الى أننا سوف لن نعرج في هذا البحث على الوصف العماري للموقع إلا بالقدر الذي له صلة مباشــرة بموضوعــة البحث ، كون الوصف العماري والزخرفــي قد تناولتــه العديـــد من الدراسات السابقة) .

شهد الجانب الشرقي من بغداد منذ نشأته في زمن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (136 ـ 158هـ / 754 ـ 775م) إقامــة تحصينــات دفاعيــة عدة مـــــرات بسبــب التوســع العمراني فيها ، ولابد لنا من أستذكار تلك التحصينات بإيجاز لما له مــن أثــر في بيــان أهميــة موقع (الباب الوسطاني) كونه الشاهد الوحيد المتبقــي لنــا من جميــع تلك التحصينــات في هــذا الجانب من بغداد :

التحصينات الدفاعية في الرصافة (عسكر المهدي)

من الثابت تاريخياً أن العمران في الجانب الشرقي من بغداد بدأ منذ أيام الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور حينما أنزل أبنه وولي عهده محمد المهدي عند قدومه من الــري على رأس جيشه سنة 151هـ (768م) في الجانب الشرقي من نهر دجلة " ..... وأبتدأ في بناء الرصافة له ، وعمل لها سوراً وخندقاً " (الطبري، 1977، ج 8 ،ص 37 . الخطيب، بدون تاريخ، ج1،ص82)، ويبدو أن العمل في السور والخندق لم يستتم الا في سنة 159هـ (776م) أي في خلافة المهدي نفسه (158ـ 169هـ / 775ـ785م) (الطبري،1977 ،ج8، ص116)، وعُرفت أبتداءً بأسم " عسكر المهدي" ثم سُميت الرصافــة (جـــــواد وسوسه،1958،ص 148) ، ولم تبين لنا المصادر التاريخية أبعاد هذا السور ولا هيئته كما لم تذكر لنا عمق الخندق وعرضه.

التحصينات الدفاعية التي أقامها الخليفة المستعين بالله

في سنة 251هـ (865 م) إلتجأ الخليفة المستعين باللــه (248ـ252هـ / 862ـ866 م) الى بغداد قادماً من سامراء بعد أن دب الخلاف بينه وبين القادة الأتراك، وأضطر الى تشييد سور جديد ليحيط بجانبي بغداد (الشرقي والغربي) ، فقد أمر قائد جيشه محمد بن عبد الله بن طاهر لتحصين مدينة بغداد بجانبيها " ..... فأدار عليها سوراً ضخماً منيعاً بالآجر والجص، فصار السور وكأنه حلقة تحيط بمدينة بغداد بجانبيها الشرقي والغربي (الطبري 1977، ج 9، ص 286) . وهنا لابد من بيان السبب الذي دفع المستعين بالله الى إقامة أسوار جديدة ، وقطعا أنه اضطر الى إقامتها ليس فقط لأن أسوار الرصافة كانت قد أندثرت لأن مضى عليها يومئذ قرابة القرن من الزمن ، إذ كان يمكنه أن يعيد بنائها على الأسس نفسها مما يوفر له الكثير من الوقت والجهد والنفقات ، وإنما السبب هو التوسع العمراني الذي أصاب شطري المدينة ، هذا التوسع الذي تجاوز حدود الأسوار القديمة التي لم تعُد تفي بالغرض الذي شُيدت من أجله (علي، 2006، ص 79) .

وكما أحجمت المصادر التاريخية عن ذكر قياسات وأبعاد سور الرصافة وخندقها فقد أحجمت أيضا عن ذكر قياسات وأبعاد سور المستعين وعدد أبراجه وأشكالها وغالبا ما كانت تُشير اليه بإشارات مقتضبة . لكن يبدو أنه كان سوراً عريضاً وقوياً ، فقد أفادت المصادر التاريخية أنه قد نصب المجانيق والعرادات في أعلى السور ، كما أنه كان عالياً إذ حاول العديد من الجنود المهاجمين تسلقه بواسطة الحبال والسلالم الخاصة بالأسوار ولم يفلحوا في

ذلك (حميد ،1987،ص 358).

وفيما يخص الخندق الذي كان يحيط بالسور، ورغم أن المصادر التاريخية قد غفلت عن ذكر مقاساته، إلا أنه كان على ما يبدو بعمق وعرض كبيرين بالمقدار الذي لم يتمكن جيش سامراء من إجتيازه حتى وصفه قائد هذا الجيش في رسالته التي بعث بها الى الخليفة المعتز بالله (252- 255هـ/ 866- 869م) رداً على رسالة التوبيخ التي أرسلها المعتز له على تقصيره في إقتحام بغداد، كتب هذا القائد في رسالته قصيدة طويلة وصف فيها الخندق بالبحر العميق :

وسور عريض له ذروه تفوق العيون وبحر عميق (الطبري 1977ج9،ص 316) .

أما مداخل هذا السور ، ورغم أن المصادر التاريخية قد ذكرت لنا أسماء ثلاثة عشر مدخلا ، ستة مداخل في سور الجانب الشرقي وسبعة مداخل في سور الجانب الغربي إلا أنها لم تُبين لنا تخطيط تلك المداخل وإذا ما كانت من النوع المزور أم من نوع المداخل ذات المحور المستقيم ، إلا أن الطبري يذكر إن تلك المداخل كانت مدعمة بأبواب حديدية منزلقة (الطبري، 1977،ج 9، ص 228) .

وقد أمر قائد جيش المستعين بهدم ما وراء سور الجانب الشرقي من الدور والحوانيت والبساتين وقطع النخل والشجر (الطبري، 1977،ج9 ،ص 303) ، ولا شك أن سبب قطع الأشجار وهدم الدور خارج الأسوار هو لرصد المهاجمين بشكل جيد من قبل المدافعين ومنعهم من إتخاذ تلك الدور والأشجار ستراً يستترون وراءه ، كما أمر قائد الجيش المستعين بالله بتشييد مظلات " يأوي إليها الفرسان في الحر والأمطار" (الطبري 1977،ج9، ص 286) ، إلا أنه لم يحدد على وجه الدقة موقع تلك المظلات ، ويرى بعض المختصين أنها لم تكن ملاصقة أو قريبة جداً من تلك الأسوار كي لا تحجب الرؤية بالنسبة للجنود المدافعين الموجودين في أعلى السور ، ولا يستبعد أنها قد أقيمت على الأرض الواقعة بين السور والخندق(حميد، 1987، ص 358- 359) إلا أننا نرى أن هذه المسافة المحصورة بين السور والخندق (إن وُجدت أصلاً) هي ضيقة جداً بحيث لا تكفي لتشييد مثل تلك المظلات ، كما أنه لا جدوى من تواجد الفرسان في هذه المنطقه أساساً ، لأن الخندق يكون عائقا أمامهم وجدار السور خلفهم .

ويبدو أن الأستحكامات التي أقامها المستعين بالله صمدت بوجه جيش سامراء الذي لم يتمكن من دخول بغداد إلا بعد خيانة عدد كبير من القادة العسكريين من جند بغداد وإلتحاق قسم منهم بجيش سامراء ، حتى أن قائد جيش المستعين محمد بن عبد الله بن طاهر نفسه قد دخل في مفاوضات سراً مع المعتز واتفقوا على خلع المستعين والبيعة للمعتز (حميد ، 1987،ص 365) .

هذه الأستحكامأات التي أقامها المستعين بالله آلت الى الإندثار مع مرور الزمن، فالخندق أهمل وربما رُدم بتضافر عدة عوامل على ذلك، منها إنهدام أجزاء من السور، وكذلك لعبت الفيضانات دوراً مهماً في ذلك ، ناهيك عن عدم العناية به من قبل الخلفاء اللاحقين .

وقد أختلفت الأراء حول أسباب سرعة إندثار السور، فيرى ليسترنج أنه أندثر لأنه كان سوراً وقتياً ولم يكن متين البنيان (ليسترنج ،بدون تاريخ ،ص 49) ، ونعتقد أن هذا الرأي غير دقيق لأن السور كان سوراً عريضاً وعالياً وهذا ما أشار إليه قائد جيش سامراء بنفسه (كما أسلفنا) وقد أُنفق عليه الكثير من الأموال بلغت (330000 دينار) (الطبري ،1977،ج 9،ص 287)، وهو مبلغ كبير جداً الى ما قورن بالأجور والأسعار في ذلك الوقت (حميد ،1987 ، ص 365) .

وذهب ماسنيون الى أن زوال سور المستعين بهذه السرعة أمر يستدعي الكثير من التمهل ، فهو يعتقد أن السور في واقع الأمر لم يُنقض أو يزول ، إذ أن السور الجديد الذي شُيد فيما بعد حول مدينة بغداد هو في الواقع نفسه سور المستعين القديم مع شيء من الإضافات والتجديدات ، وأنه نفس السور الذي شاهده إبن جبير عند زيارته بغداد في سنة 580هـ (1184 م) ، لأن هذا السور قد أستمر يحيط بمدينة بغداد حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر (مقدسي ، 1984، ص 10) .

ألا إن هذا الرأي لا يمكن قبوله لأن تبدلاً حقيقياً قد حدث في خارطة بغداد من ناحيتها الشمالية حتى صار موقع الشماسية بعيداً باتجاه الشمال في حين أن المدينة أمتدت باتجاه الجنوب بسبب توسع دار الخلافة وظهور محلات جديدة وكبيرة ملاصقة لها بإتجاه الشرق والجنوب ، ففي حين كانت نهاية سور المستعين عند موقع المدرسة المستنصرية الحالية ، صارت نهاية السور الذي شاهده إبن جبير عند موقع الباب الشرقي (حميد، 1987، ص 367) .

أما مصطفى جواد واحمد سوسه فيعتقدان إن سور المستعين قد تهدم إما تعفياً وتهدماً وإما نُقض قصداً (جواد وسوسه ، 1945 ، ص 148) .

في حين يرى د.عبد العزيز حميد إن أسباباً كثيرة تقف وراء إندثار هذا السور وزواله ، ربما من أهمها إنتهاء السبب الذي شُيد من أجله ، وهي الحرب بين المعتز والمستعين ، فلم يعد أهل بغداد ولا السلطة تنظر إليه بارتياح لما يذكرهم به من الأيام العصيبة التي مرت عليهم ، ثم إن قسماً من السور لابد أن يكون قد تضرر أو تصدع نتيجة تلك الحرب ، كما إن الفيضانات التي اجتاحت بغداد قد قوضت أجزاء كبيرة منه ، ولما كان السور مشيداً بالآجر فلا شك أن الناس وربما السلطة قد نقضت معظم ما تبقى من أجزائه للإستفادة من آجره في بناء العمارات العامة أو الدور والمساكن الخاصة (حميد، 1987، ص 367) .

وعندما تولى المعتضد بالله الخلافة (279- 289هـ / 892- 902م) قرر ترك سامراء والعودة الى بغداد ، وقد شيد مجموعة من القصور في الجانب الشرقي من بغداد جنوب سوق الثلاثاء ، وأكمل أبنه المكتفي بالله (289- 295هـ / 902- 908م) ما بنى أبوه من قصور . وقد أمتدت قصور الخلافة وبساتينها جنوب سوق الثلاثاء على ضفة نهر دجلة مسافة (1 كم) وصارت تعرف هذه القصور وملحقاتها من أبنية وبساتين بـ (دار الخلافة) (جواد وسوسه، 1945، ص 157) .

أُحيطت دار الخلافة بسور على شكل نصف دائرة أو ما يشبه الهلال (القزويني، 1960، ص 316) ، ولا يُعلم على وجه الدقة تاريخ بناء هذا السور إلا إن المرجح أنه شُرع في بنائه على عهد المعتضد بالله وأتمه الخلفاء اللاحقون (جواد وسوسه، 1945، ص 160) ، إلا إن هذا السور لم يُصمم أساساً للأغراض الدفاعية بل كان بمثابة جدارعازل يعزل مشتملات دار الخلافة وقصورها عن المناطق السكنية المجاورة(حميد، 1987، ص367) .

التحصينات الدفاعية في زمن المستظهر بالله

بعد إندثار سور المستعين ظلت بغداد بدون سور دفاعي يصد عنها هجمات الطامعين بها ، وبقي الحال كذلك لأكثر من قرنين من الزمن حتى تولى الخلافة المستظهر بالله (487- 512هـ / 1094- 1118م) ، وشرع في السنة الثانية من خلافته في بناء سور بغداد الكبير الذي ضم للمرة الثانية جانبي المدينة الشرقي والغربي ، ففي سنه 488هـ (1095م) وضع الوزير عميد الدولة أبو المنصور محمد بن جهير التغلبي خط السور بناءً على أمر الخليفة ، وأمر بجباية الأموال من الناس من ذوي العقار والدور للانفاق على انشاء السور ، وأذن للعوام في التفرج والتبرع بالمشاركة في البناء ، وأقام أهل بغداد مهرجاناً كبيراً احتفاءاً بهذه المناسبة (أبن الجوزي 1357هـ ،ج9 ،ص85) .

بعد إنجاز جزء يسير من هذا السور توقف البناء ولم يتمكن الخليفة المستظهر بالله من إكماله لأسباب يراها البعض خارجة عن إرادة الخلافة (حميد، 1987، ص 370) ، لكن أبنه المسترشد بالله (512- 529هـ / 1118-1135 م) وبعد خمس سنوات من توليه الخلافة بعد أبيه عزم على إكمال ما بدأه والده ، فقرر بناء السور حول الجانب الشرقي ، فأمر بجباية الأموال من الناس من أصحاب العقار كما فعل وزير أبيه ، فحصل من ذلك على أموال تكفي لبناء السور ، غير أن الناس جزعوا من قلة ما في أيديهم فأعاد المسترشد بالله أموالهم وأنفق على بناء السور من أمواله الخاصة(ابن الجوزي، 1357هـ ،ج9 ،ص 243)، وأذن للناس في التفرج والمشاركة في العمل فخرجوا على تلك الحال التي كانت في أيام أبيه وصار ، أهل كل محلة يعملون أسبوعا ، وهكذا تم بناء السور

العظيم لبغداد (ابن الجوزي ، 1357هـ ، ج9 ، ص 245) الذي ضم بداخله دار الخلافة وجميع المحلات التي نشأت حولها فضلا عن محال بغداد القديمة في الجانب الشرقي التي كانت عامرة في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري (حميد ، 1987، ص 371) .

بُني هذا السور من الآجر والجص وكان عرضه 22 ذراعا(أبن الجوزي ، 1357هـ ، ج9 ، ص243) وأُحيط بخندق عريض مرصوف بالآجر ودُعم بمسناة في زمن الخلفاء الذين أعقبوا المسترشد بالله (جواد وسوسه ، 1945 ، ص163) وجُعل للسور أربعة مداخل هي من الشمال (باب السلطان) ثم يليه (باب الظفرية) ثم (باب الحلبة) ثم (باب البصلية) في الجنوب (أبن جبير ، 1981، ص 184) . وقد جدد الخليفة الناصر لدين الله (575- 622هـ / 1180- 1225م) أقساماً كثيرة من هذا السور في أواخر القرن السادس الهجري (جواد وسوسه ، 1945، ص 161) .

وبخصوص هذه التسميات ، فقد سُمي المدخل الأول بـ (باب السلطان) لدخول السلطان السلجوقي طغرلبك من هذا الموضع قبل تشييد هذا السور ، وقد عُرف فيما بعد بأسم (باب المعظم) لأن الطريق الذي يخرج منه ينتهي عند ضريح الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ، وقد هُدم بعد فترة من سقوط بغداد بيد المغول سنة 656هـ (1258م) . أما المدخل الثاني (باب الظفرية) فقد سُمي بهذا الأسم نسبة لمحلة الظفرية الواقعة عند هذا المدخل ، ويُعرف اليوم بأسم (الباب الوسطاني) (جواد وسوسه ، 1945 ، ص 160) . أما (باب الحلبة) فقد سُمي بذلك لقربه من ميدان السباق الذي كان في ذلك الموضع قبل إنشاء السور وقد جدد الخليفة الناصر لدين الله هذا المدخل سنة 618 هـ (1222م) ووثق هذا التجديد بشريط كتابي يحيط ببرج المدخل (الأعظمي ،1980،ص48-49). وقد عُرف هذا المدخل في القرون اللاحقة بإسم (باب الطلسم) ثم أطلق عليه الأتراك أسم (باب الفتح) لدخول السلطان العثماني مراد الرابع (1032- 1049هـ / 1623 - 1640م) منه (جواد وسوسه ، 1945، ص 161) . أما المدخل الرابع والأخير (باب البصلية) فقد سُمي بذلك نسبة الى محلة مجاورة كان يُزرع فيها البصل ، وكان يسمى قبل ذلك بأسم (باب كلواذا) نسبة الى قرية كلواذا التي تقع جنوب بغداد وكان يُعرف في القرن الثامن عشر بأسم (باب قره لوق) أي باب الظلمات ، وعُرف بعد ذلك بأسم (الباب الشرقي) (حميد ، 1987 ، ص 377) .

وقد وصف المؤرخون هذا السور في الحقبة التي تلت الغزو المغولي لبغداد ، فذكروا أنه كان مبنياً بالآجر على هيئة نصف دائرة طولها (18000) خطوة على ضفة دجلة فوق المدينة الى ضفة دجلة ثانية تحت المحلات الجنوبية (جواد وسوسه ، 1945، ص 163) .

وصف أغلب الرحالة الذين زاروا بغداد هذا السور ومنهم أبن جبير الذي ذكر مداخل السور الأربعة بأسمائها المعروفة في أواخر القرن السادس الهجري (الثالث عشر ميلادي) (أبن جبير، 1981، ص 184) . وفي سنة 944 هـ (1537م) وضع نصوح السلامي المطراقي صورة لبغداد رسم فيها المواضع المهمة في المدينة كما كانت بعد احتلال السلطان العثماني سليمان القانوني لها (والمطراقي هو أحد الذين رافقوا السلطان العثماني في حملته على بغداد) وقد رسم المطراقي سور بغداد الشرقية وظهر أقرب ما يكون الى وضعه في العهد العباسي الأخير ، غير ان المداخل التي صورها على السور ثلاثة وهي المدخل الشمالي (باب السلطان) والمدخل الجنوبي (باب كلواذا) والمدخل الوسطاني (باب الظفرية)،أما المدخل الرابع (باب الحلبة) فلم يصوره (خارطة 1) وهو الأمر الذي يدل ربما على أنه كان مغلقا في ذلك الوقت (جواد وسوسه، 1945، ص 206- 207) .

وأول الرحالة الأوروبيين الذين وصفوا بغداد في العصور الاخيرة هو الفرنسي تافرنييه الذي مر من العراق في سفره للهند سنة 1632م ورجوعه منها سنة 1652م . وكان وصفه لبغداد أكثر دقة من الذين سبقوه فقال عنها انها تقع " على دجلة في ضفة فارس ـ ويقصد الجانب الشرقي ـ ..... ويبلغ طول المدينة نحواً من (1500) خطوة وعرضها (700 ـ 800) خطوة ولا يتعدى

محيطها ثلاثة أميال ، أما سورها فمبني بالآجر، ويقطع هذا السور في بعض النقاط أبراج كبيرة كالمتاريس فوق جميعها زهاء ستين مدفعاً ..... ويكتنف السور خندق عريض عمقه نحو خمس أو ست قامات ، وللمدينة أربعة أبواب ، ثلاثة منها من جهة البر وواحد مطل على النهر ومنه يعبر على جسر ذي ثلاثة وثلاثين قاربا .... والقلعة في داخل المدينة بالقرب من الباب المسمى بـ (باب المعظم) وهو في شمال المدينة (تافرنييه ، 1944، ص 78) .

وقد وضع تافرنييه خارطة تقريبية لمدينة بغداد كما كانت عليه أثناء زيارته لها (خارطة 2) ويبدو من تخطيطه أن المدينة كانت أقرب ما تكون الى وضعها في العهد الأخير الذي يعود الى ما قبل الاحتلال البريطاني للعراق سنة 1917م ، فكان الجانب الشرقي من المدينة محاطاً بسور من الآجر يبلغ طوله حوالي ثلاثة أميال تدعمه أبراج على أبعاد مختلفة وحوله خندق عميق . ويتفق وصفه لمداخل المدينة مع ما ذكره ابن جبير من قبله ما عدا بعض الاختلاف في التسمية (جواد وسوسه، 1945، ص 209) .

وبعد تافرنييه بنحو قرن من الزمن زار بغداد السائح الدنماركي كارستن نيبور بحدود سنة 1766م ، ويُعد نيبور أول من وضع خارطة علمية دقيقة لأسوار بغداد وفق مقياس رسم هندسي مضبوط (حميد، 1987، ص 373) (خارطة 3) وترك وصفاً لبغداد أيده الذين جاؤوا بعده من الرحالة ، فقد رسم السور الكبير في الجانب الشرقي مع مداخله الأربعة وسماها بأسمائها المعروفة ، سوى المدخل الجنوبي فقد سماه(باب قرلغ) وأشار الى باب الجسر وهو الباب المؤدي الى الجسر الذي يعبر منه دجلة الى الجانب الغربي ، كما وصف أبراج السور الكبير وما بينها من أبراج صغيرة (نيبور، 1965، ص 31) .

أما الرحالة صموئيل أيف الذي زار بغداد سنة 1779م فقد جاء في وصفه لها : " 0000 وهي محصنة بسور عريض سامق من الآجر مسيع بالطين وموثق بأبراج كبيرة تشبه ثكن الفرسان ، ويحيط به كله خندق عميق ، وشكل المدينة مربع غير تام ، والسور متهدم بعضه في عدة مواضع ... " (جواد وسوسه ، 1945 ، ص 212) .

وفي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي قام المهندسان الانكليزيان فليكس جونز وكولينكوود بوضع خارطة لبغداد بعد إجراء مسح خاص للمدينة ، وتُعد هذه الخارطة أوضح وأدق خارطة لبغداد في ذلك الوقت ، فقد شملت جميع محلاتها وشوارعها وأسوارها بجانبيها الشرقي والغربي (خارطة 4) ، وقد جاء ما دوناه في الخارطة عن الجانب الشرقي ومداخله مطابقا لما رسمه نيبور قبل نحو قرن من الزمن (جواد وسوسه،1945، ص 214) .

وقد وصف فليكس جونس بغداد الشرقية بقوله : " انها محاطة بسور ضخم أمامه من الخارج خندق عميق تحيط به من جهة الصحراء سدة قوية ، وان السور الداخلي كان يحمي المدينة من خطر الغرق بمياه نهر دجلة الجارية الى الخندق " (جواد وسوسه ، 1945، ص 215) .

رُمم هذا السور أكثر من مرة في زمن العثمانيين ، فقد قام الوالي حسن باشا (1116 – 1136هـ / 1704 – 1723م) بتنظيف الخندق إصلاح السور أثر التهديدات الايرانية (الكركوكلي، 1963، ص 16) كما رُمم مرة أخرى أستعداداً لهجوم نادر شاه الذي منعته هذه الأسوار من اقتحام المدينة فحاصرها سنة 1732م وفشلت حملته ثم أعاد الكرة في السنة التالية إلا انه فشل مرة أخرى في اقتحام أسوارها (نورس ، 1979 ، ص 165 ، 167) . ورُمم السور بعد ذلك في منتصف القرن الثامن عشر(حميد، 1987، ص 378) , إلا أن أخر ترميم مهم للسور هو ما قام به والي بغداد سليمان باشا الكبير(1194– 1217هـ / 1780– 1802م) (جواد وسوسه، 1945، ص 216) .

بقي هذا السور صامدا لقرون طويلة حتى قام الوالي مدحت باشا (1286– 1289هـ / 1868– 1872م) بهدمه بقصد توسيع المدينة من جهة ، والاستفادة من آجره من جهة ثانية (حميد، 1987، ص 379) ثم أن ظهور سلاح المدفعية وتطوره أفقد الأسوار أهميتها العسكرية ، وهكذا هُدم هذا السور

. أما الخندق الذي كان يحيط بهذا السور من الخارج فقد زالت معالمه بعد دفنه في زمن الوالي ناظم باشا سنة (1910– 1911) (سوســـــه ، 1963، ص 313) .

أما المداخل الاربعة لهذا السور فقد بقيت شاخصة الى عهد قريب مما يدل على متانة بنائها ، وقد رُمم (باب الحلبة) في سنة 1657م بعد أن تضرر جراء فيضان اجتاح بغداد ، وأُغلق بعد ذلك إلا أنه بقي قائماً وبحالة جيدة من الحفظ ، وقد أتخذه العثمانيون مخزناً لحفظ البارود . كما أتخذ الانكليز بعد دخولهم بغداد من برج مدخل (الباب الشرقي) كنيسة لهم بعد أن سدوا مدخله الشرقي . إلا أن ما يؤسف له أن هذه المداخل قد أُزيلت ، فقد هدم العثمانيون (باب الطلسم) بالبارود عند خروجهم من بغداد سنة 1917 ، كما هُدم (باب المعظم) بعد ذلك بسنوات ، وفي سنة 1938م قامت أمانة العاصمة بهدم المدخل الثالث (الباب الشرقي) فلم يتبق من المداخل الأربعة سوى مدخل (الباب الوسطاني)، وقد مر هذا المدخل بأدوار من الصيانة والترميم من قبل مديرية الآثار القديمة منذ عام 1932(حميد، 1987، ص 379، 380) .

أما عن تخطيط وعمارة هذه المداخل فكل منها عبارة عن برج ضخم أسطواني الشكل تقريباً مبني بالآجر والجص، وهو من نوع المداخل ذات المحور المنكسر(المداخل المزورة)، أول هذه المداخل من جهة الشمال هو(باب السلطان) أو(باب المعظم) وهو أبسط مداخل هذا السور تصميماً أذ لم يكن له برج مثل بقية المداخل الثلاثة لهدم برجه بعد سقوط بغداد بيد المغول كما أسلفنا .

أما المدخل الثاني (الباب الوسطاني) فهو عبارة عن برج أسطواني الشكل تقريبا مبني بالآجر والجص ، يبلغ محيطه عند قاعدته(56م) تقريبا، وارتفاعه عن سطح الارض في الوقت الحاضر (14،5م) (لوح1) ، تقع فتحة المدخل في الجهة الشمالية الغربية ، عرض الفتحة (3،20 م) وأرتفاعها (4،5 م) يعلوها عقد مدبب منفرج (لوح2) ، تتقدم هذا المدخل قنطرة أقيمت فوق الخندق الذي يحيط بالسور والبرج ، تقوم هذه القنطرة على عقدين مدببين يبلغ عرض كل منهما (4،5 م) تقريبا (لوح3) ، وبعد أجتيازها يصل الداخل الى برج المدخل الذي هو عبارة عن حجرة كبيرة مثمنة من الداخل ، طول ضلعها (3،5 م) تقريبا تعلوها قبة قليلة التحدب ، وفي كل ضلع من الأضلاع دخلة عمقها نحو (2،5 م) تقريا وعرضها (3،20 م) وأرتفاعها (4،5 م) تقريبا وسقفها بشكل قبو مدبب ، فُتح في بعضها مزغل وفي أثنتين منها فُتح مدخلا البرج اللذان يجتازهما الداخل والخارج للمدينة (لوح 4) ، ففي الجهة الشمالية الغربية من هذه الحجرة المثمنة فُتح المدخل الأول (كما أسلفنا) الذي يؤدي بالقادم من الخارج الى داخل البرج ، والمدخل الثاني فُتح في الجهة الجنوبية الغربية (أي على الداخل أن ينعطف يمينا)، ويؤدي الى قنطرة ثانية أعلى قليلا من القنطرة الأولى تقوم هي الأخرى على عقدين مشابهين لعقدي القنطرة الأولى ، أقيمت فوق الخندق ، طولها (20 م) وعرضها (6،30 م) تقريبا ، تُوصل الى فتحة ببدن السور تبدأ من مستوى ممر القنطرة وبنفس عرضها تؤدي الى داخل المدينة (لوح5). أما المدخلان الثالث والرابع ورغم أزالتهما ألا أن ما تبقى منها من صور فوتوغرافية يستدل منها أنهما لا يختلفان في تخطيطهما عن تخطيط (الباب الوسطاني) .

واللافت في تخطيط هذه المداخل الثلاثة عموما ومدخل (الباب الوسطاني) على وجه الخصوص (كونه المثال الوحيد الذي ما زال قائماً) أن برج المدخل يقوم بذاته مستقلا ، أي لم يُدمج بالسور بل يتقدم أمامه بنحو عشرين مترا ولا يتصل به بنائيا إلا من خلال القنطرة ، ولكون السور محاط بخندق فكان لزاما أن يحيط الخندق ببرج المدخل أيضا ، أذ ليس من المنطق من الناحية الدفاعية أن يحاط السور بخندق ويُترك برج المدخل المتقدم أمام السور بدون خندق . وبهذا فقد طرأ تغيير في تخطيط الخندق أيضا ، وعليه أصبح مـــــن الضرورة إقامة معبر أول يُوصل الى داخل برج المدخل ومعبر ثان يُوصل من البرج الى السور ، ولما كان البرج مرتفعاً عن مستوى الأرض (لوح 6) عمد المعمار لبناء قنطرة في موضع كل معبر من المعبرين بدلا من الإستعانة بالمعابر المتحركة التي من شأنها أن تُرفع عند وجود خطر هجوم وشيك .

إن تخطيط مداخل أسوار بغداد الشرقية بهذا التصميم الفريد هو سابقة في تخطيط مداخل المدن في العراق في العصر الاسلامي ، إذ لم تُشر المصادر التاريخية الى تصميم مداخل أسوار مدينة واسط التي بناها الحجاج بن يوسف الثقفي سنة 83هـ (على الارجح) الطبري،ج6،ص 383) ، أما مدينة بغداد المدورة التي بناها الخليفة المنصور في الجانب الغربي من نهر دجلة ، فقد أوضح المؤرخون وصفها ووصف مداخلها الذي من خلاله تمكن المختصون من وضع مخطط للمدينة يتضح فيه بشكل جلي إن مداخل السور الأول للمدينة كانت جزءاً من السور أي لا تتقدم عليه (اليعقوبي، 1957، ص 8 . الخطيب، بدون تاريخ،ج1 ، ص 74) . وإذا ما تركنا العراق وذهبنا الى اقليم اسلامي أخر هو مدينة القاهرة عاصمة الفاطميين في مصر ، فان السور الذي أحيطت به المدينة عند تاسيسها سنه 358هـ (969 م) بأشراف القائد جوهر الصقلي كانت مداخله جزءا من السور ، وكذلك هو حال مداخل السور الذي بناه بدر الدين الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (428 – 487هـ / 1036 – 1094 م) للمدينة بعد أن توسع العمران خارج أسوارها ، فأحاط المدينة سنة 480هـ (1087 م) بسور وصله بسور جوهر يمينا ويسارا ، وفتح فيه مداخل أمام المداخل القديمة لتكون عوضا عنها ، وهذه المداخل كانت جزءاً من السور أيضا والتي ما زالت قائمة الى يومنا هذا (زكي ، 1966،ص13–14) . أي أنه لا يوجد هناك مثال مشابه لمداخل أسوار بغداد الشرقية ، كما لا توجد اشارات تاريخية تدلل على وجود مثل هكذا مداخل في تحصينات مدينة اسلامية سابقة او معاصرة او لاحقه لهذه المداخل .

مما تقدم نخلص الى ان مداخل أسوار بغداد الشرقية هي مداخل فريدة في تخطيطها هذا ، لذا فان مدخل (الباب الوسطاني) لا يُعد أقدم مثال قائم لمداخل المدن الاسلامية في العراق فحسب بل المثال الفريد القائم بهذا التخطيط غير المسبوق .

لكن هذا التخطيط يثير لدينا عدداً من التساؤلات ، من أهمها : لماذا أقدم القائمون على تخطيط وعمارة أسوار بغداد الشرقية على إعتماد تخطيط مداخل لم يكن مألوفا من قبل ؟ وما هي الفائدة العسكرية التي كانت مرجوة منه أكثر من التصاميم المعروفة لمداخل أسوار المدن انذاك ؟ .

وهنا لن نحاول عبثا البحث عن إجابات لهذه التساؤلات في المصادر التاريخية لأنها أساساً لم تتوقف عند مسألة تصميم وتخطيط هذه المداخل ، لكن نعتقد ان الهدف من هذا التخطيط هو عسكري دفاعي بحت ، لأن هذا البرج الذي يتقدم بهذه المسافة أمام السور من شأنه أن يوفر زاوية رصد أكبر مما لو كان مُدمجا مع السور ، لكن الأمر الأكثر أهمية من ذلك حسب اعتقادنا هو لزيادة قوة ومتانة مداخل السور ، فمن المعروف أن مداخل الأسوار عموما تُعد نقاط ضعف تلك الأسوار ، فالأسوار مهما كانت متينة وعالية إلا أنها تتخللها مداخل وهي فتحات في جدار السور للولوج الى المدينة ، لذلك أهتم مخططو المدن بزيادة تقوية المداخل من خلال دعمها ببرجين على جانبيها أو أن تُفتح تلك المداخل داخل برج ضخم ومتين ، لكن مداخل أسوار بغداد الشرقية أتبعت تخطيطاً جديداً لمعالجة هذا الأمر وذلك بجعل فتحات المداخل لا تبدأ من مستوى الارض ، وإنما تبدأ تلك الفتحات عند ارتفاع أكثر من (4،5 م) أي عند مستوى اتصال القنطرة ببدن السور وهذا من شأنه أن يحافظ على مستوى واحد لسُمك السور على مدار محيط السور كله وهذا يزيد من متانة السور وقوة صموده وصده للهجمات إذا ما حاولت تلك الهجمات أستهداف مداخله . لكن على الجانب الآخر ومن الناحية البنائية نعتقد أن تقدم البرج أمام السور مستقلا بذاته قد يجعله يتأثر بضربات المجانيق (أذا ما تعرضت المدينة للحصار) أكثر مما لو كان جزءاً من السور لأن البناء يشد بعضه بعضا ، ويبدو أن المعمار قد فطن لهذا الأمر فعمد الى أن يكون البرج متيناً وجداره سميكاً مما جعل هذا البرج يصمد أمام كل الهجمات التي تعرض لها طيلة هذه القرون الطويلة ومازال قائما .

وقد يتبادر للأذهان أن أرتفاع برج المدخل بهذا المستوى عن الأرض المجاورة الذي يُلزم القادمين الى المدينة أرتقاء عدداً من المراقي للوصول الى القنطرة الأولى (أو ربما تلة ترابية مصطنعة) ومن ثم الولوج الى داخل البرج ثم الأنعطاف يمينا للوصول الى القنطرة الثانية ثم النزول بعدد من الدرجات الى داخل المدينة بعد أجتياز الفتحة الموجودة في بدن السور ، قد تؤثر على

أنسيابية حركة الداخلين والخارجين من والى المدينة وحركة البضائع. ولتوضيح هذه المسألة يجب أن نضع نصب أعيننا مبدأً مهماً من مبادئ وأساسيات العمارة العسكرية هو أن تحصينات المدن بكل مكوناتها من خنادق وأسوار وأبراج ومزاغل وغيرها من العناصر الدفاعية الغرض منها هو أعاقة تقدم الأعداء ومنع دخولهم للمدينة ، ومداخل الأسوار وأن كانت هي نقاط ضعف تلك الأسوار لكن لا مناص من وجودها لذلك يجب أن تُصمم بشكل يمكنها من خلاله أن تؤدي دورها في عملية الأعاقة أذا ما تمكن المهاجمون من تحقيق موطىء قدم في مدخل من المداخل ، إذاً أساس تصميم مداخل الأسوار هو عرقلة أنسيابية الحركة قدر الأمكان وليس تيسيرها ، ولم تشذ مداخل أسوار بغداد الشرقية عن هذا المبدأ .

مهما يكن من أمر نعتقد أن تخطيط هذه المداخل هو أبتكار عراقي فذ يُضاف الى سلسلة أبتكارات المعمار العراقي في مجال العمارة العربية الأسلامية بوجه عام وللعمارة العسكرية بوجه خاص .

المصـــــــادر والمراجع

1- أبن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت614هـ)

رحلـــة أبـــن جبيـــــــر، دار ومكتبـة الهلال ، بيـــــــــروت، 1981 .

2- أبن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي(ت597هـ)

المنتظـم في تاريخ الملوك والأمم ، مطبعة دار المعـارف العثمانيـــــــــــة ، حيدرآباد ، 1357هـ ، جـ 9 .

3- الأعظمي ، خالد خليل حمودي

الزخارف الجدارية في آثار بغداد ، دار الرشيد للنشر ، بغـــــــداد ، 1980 .

4- تافرنييه ، جان باتيت

العراق في القـــرن السابــع عشر ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبعة المعارف ، بغداد ، 1944 .

5- جـواد وسوســه ، د. مصطفى و د. أحمد

دليـل خارطــة بغــداد ، المفصــل في خطط بغداد قديما وحديثا ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، 1958 .

6- حميد ، عبد العزيز

التحصينات الدفاعية في بغـــداد الشرقية ، موسوعة الجيش والسلاح ، نخبــة من الباحثين العراقيين ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1987 ، ج3 .

7- الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي (ت463هـ)

تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بدون تاريخ ، جـ 1.

8- زكي ، عبد الرحمن

القاهرة ، تاريخها ، آثارها . دار الطباعة الحديثة ، القاهرة ، 1966 .

9- سوسه ، د. أحمد

فيضانات بغداد في التاريخ ، مطبعة الأديب البغدادية ، بغداد ، 1963 . 10- الطبري ، محمد بن جرير (ت310هـ)

تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، 1977 .

11- علي ، فاروق محمد

الأستحكامات الدفاعية في تخطيط المدن والعمارة العربية الأسلامية في العراق حتى نهاية العصر العباسي ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد ، 2006 .

12- القزويني ، زكريا بن محمد (ت682هـ)

آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ،1960 .

13- الكركوكلي ، رسول

دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ، ترجمة موسى كاظم نوري ، مطبعة كرم ، بيروت ، 1963 .

14- ليسترنج ،كي

بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشير فرنسيس ، المطبعة العربية ، بغداد ، بدون تاريخ .

12- مقدسي ، جورج

خطط بغداد في القرن الخامس الهجري ، ترجمة د. صالح أحمد العلي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، 1984 .

15- نورس ، د. علاء الدين

العـــــــراق في العهـــــد العثمانـــــي ، وزارة الأعلام ، بغـــداد ، 1979 .

16- نيبور ، كارستن

رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمة د. محمود حسين الأمين ، بغداد ، 1965 .

17- اليعقوبي ، أحمد بن يعقوب بن واضح (ت292هـ)

البلـــــــــــدان ، المطبعـــــة الحيدريـــــــــــة ، النجـــــــف ، 1957.

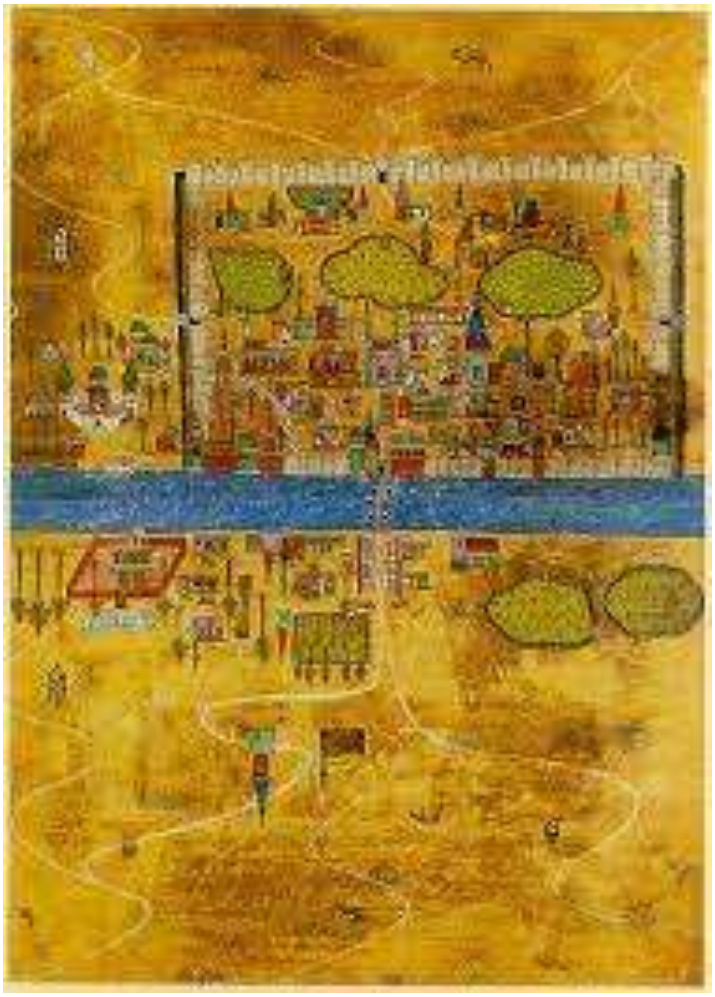

(خارطة 1)

خارطة بغداد التي رسمها المطراقي

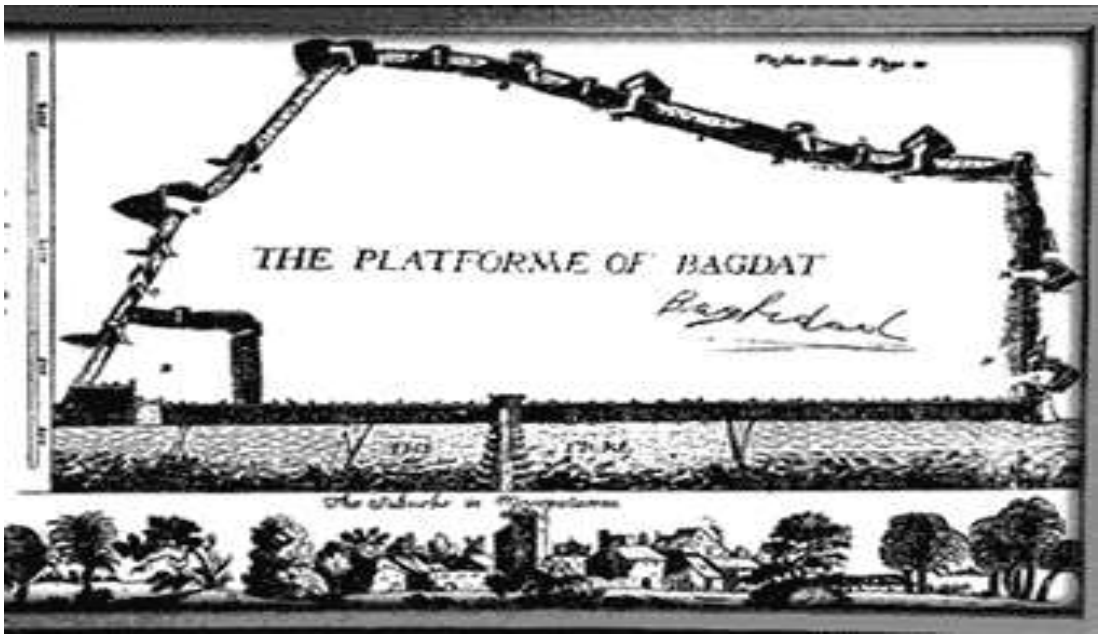

(خارطة 2)

خارطة بغداد التي رسمها الرحالة الفرنسي تافرنييه

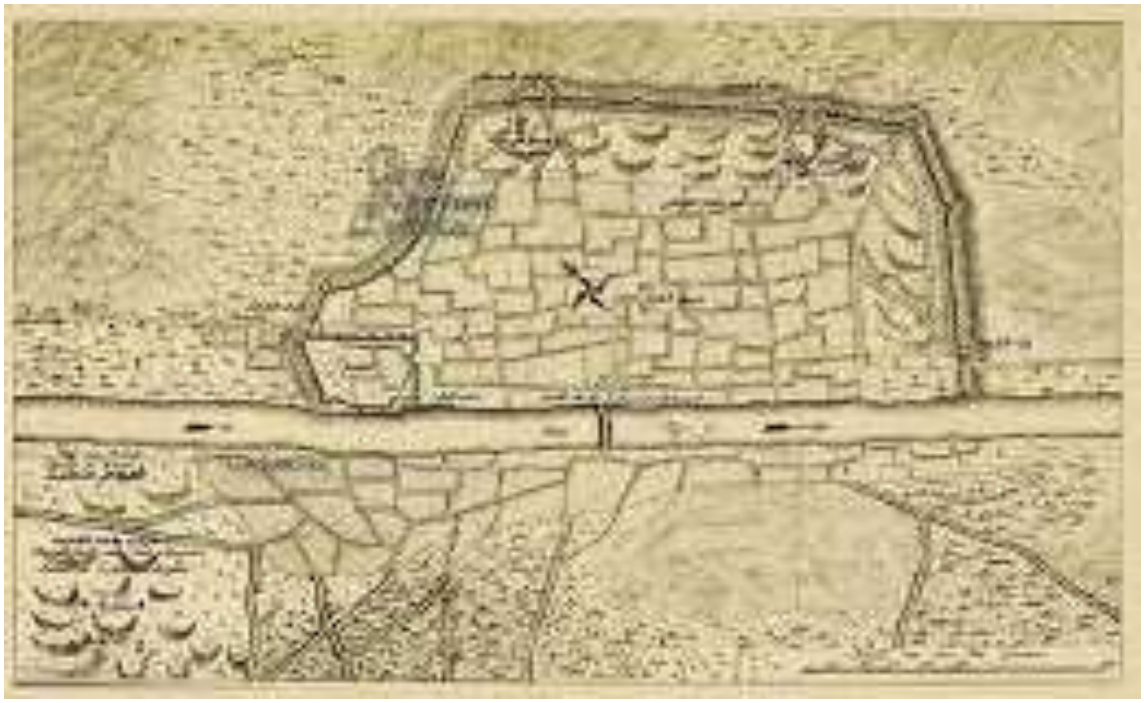

(خارطة 3)

خارطة بغداد التي رسمها الرحالة الدنماركي نيبور

(IJRSSH) 2023, Vol. No. 13, Issue No. III, Jul-Sep e-ISSN: 2249-4642 p-ISSN: 2454-4671

(خارطة 4)

خارطة بغداد التي رسمها المهندسان الأنكليزيان جونز و كولينكوود

(لوح 1)

برج مدخل (الباب الوسطاني)و القنطرة المؤدية الى داخل المدينة

(لوح 2)

جزء من القنطرة الأولى وفتحة المدخل المؤدي الى داخل البرج

(لوح 3)

قنطرتا برج المدخل والعقود التي تحملهما

(لوح 4)

برج المدخل من الداخل وجانب من الدخلات والقبة قليلة التحدب

(لوح 5)

القنطرة الثانية من الداخل وممرها المؤدي الى السور

(لوح 6)

المراقي المؤدية الى الممر الذي يتقدم القنطرة الأولى